فخورة لكوني فلسطينية

بقلم زينة أبو حمدان، ١٤ عاما، من كفر عقب، الضفة الغربية

٥ نيسان/إبريل ٢٠٠٦، كفر عقب، الضفة الغربية. اليوم هو يومنا... يوم الطفل الفلسطيني. وأنا فخورة لكوني فتاة فلسطينية، فتاة تتزايد ثقتها بنفسها مع كل يوم وتزداد قوة بثبات على الرغم من ازدياد الوضع السياسي سوءاً.

اليوم، عبرت حاجز قلنديا في طريقي إلى المدرسة كالعادة. ربما لا يدرك أغلب الناس ما يتضمنه عبور الحاجز العسكري، وليس بمقدورهم أن يتوقعوا مدى الصعوبة التي أجدها في مجرد الوصول إلى المدرسة لكي أواصل تعليمي.

كل مرة أعبر فيها الحاجز، تفيض في عقلي ذكريات عديدة، بما فيها تلك الخاصة بطفلة في الثامنة من عمرها كانت في داخلي في يوم من الأيام قبل أن نعود إلى فلسطين، ووجدت نفسها عند الوصول إلى فلسطين تشعر بالخوف وضياع الأمان.

لم يكن من السهل عليّ أن أتأقلم مع الحياة هنا في فلسطين. فقد وجدت من الصعب عليّ تقبل حقيقة أن العيش في فلسطين يختلف عن العيش في أي بلد في العالم.

على سبيل المثال، كنت في البداية كلما ذكرت أمامي كلمة "حاجز" أفكر في نفسي "وما الأمر الكبير في ذلك؟" ولكني سريعاً ما وجدت، بالطبع، أن الحواجز العسكرية هي فعلاً أمر كبير، وهو ما أصبحت أدركه بشكل حاد عندما قام جندي إسرائيلي على أحد الحواجز بانتزاع حقيبة المدرسة مني لأنني لم استجب لأمره بسرعة كافية.

نعم، أذكر أني بكيت طوال اليوم بسبب هذا الحادث بعينه. فبصراحة لم أتخيل يوماً أن العبور من حاجز عسكري سيكون بهذه الصعوبة، إلى درجة أن والديّ في واقع الأمر قررا تحديد "ساعات مجيئي وذهابي" والأماكن التي يسمح لي بالذهاب إليها وما إلى ذلك، وكل هذا بسبب الحواجز.

لقد كان العيش خارج فلسطين أسهل بكثير، فعلى الأقل كنت أشعر بالأمان. هذا لا يعني أني نادمة على القدوم للعيش هنا، ولكني آمل بأن أتمكن من الإحساس بالأمان من جديد,

أنا أسألكم: هل من المنصف أن تسمع طفلة في الثامنة من عمرها صوت إطلاق النار خارج منزلها فيما تحاول أن تتابع التلفاز؟ هل من المنصف أن يضطر والداها لأخذها إلى غرفتهما في منتصف الليل وإطفاء الأنوار دون أن تعرف سبب ذلك؟ هل من المنصف أن ينتقي الجنود دائماً سيارة والدي على ما يبدو من بين كل السيارات المنتظرة على الحاجز لكي يقوموا بتفتيشها؟ هذه الأسئلة التي تطرحها على نفسها طفلة في الثامنة من العمر، وحتى بعد أن أصبحت الحواجز الآن بلا أدنى شك تمثل جزءاً "طبيعياً"

من حياتي، سأظل دائماً أحس بالغيظ منها لأنها حرمتني كما حرمت العديد من الأطفال الفلسطينيين الآخرين من براءة الطفولة.

ليس من العدل أيضاً أن لا أستطيع زيارة أصدقائي، إذ أصبح من المستحيل علينا أن نلتقي بعد أن أصبحت تفصل بيننا حواجز إسمنتية بسبب الجدار. ومع ذلك فالحياة كانت على الدوام غير منصفة للفلسطينيين. فمثلاً، ليس من الإنصاف أن تحتفل بلدان أخرى بأمور مثل مهرجانات الفراولة، فيما أن كل احتفالاتنا ترتبط بالسياسة ولا يكاد يشوبها أي جو احتفالي.

لا أعتقد أنه بإمكاني، مهما حاولت، أن أفسر بشكل دقيق ما يمر به الفلسطينيون من محن. وأشك في وجود أية كلمات تستطيع أن تصف معاناتنا حق وصفها. ومع ذلك، فأكثر ما يدهشني أنه مع كل حاجز عسكري جديد يتم نصبه، ومع كل بذرة يتم غرسها، نزداد كفلسطينيين قوة في تصميمنا على البقاء. وهذا بحد ذاته أمر علينا جميعاً أن نكون فخورين به.

ينبغي أن يكون الاحتفال بيوم الطفل الفلسطيني حدثاً مميزاً، أن يكون يومنا نحن – أطفال فلسطين – الذي نعلن فيه حقوقنا. نحن نتحدث هنا عن حقوق الإنسان الأساسية، بما فيها حق كل شخص بالغ لأن يكون قادراً على أن يسترجع في باله أيام طفولته دون أن يضطر لأن يعيد معايشة اعتقال أخيه أو إصابة أبيه بعيار ناري أو أي حادث آخر من تلك التي أضحت "طبيعية" بالنسبة للأطفال الفلسطينيين.

والواقع أنه حتى إذا ما جاء اليوم الذي نكون فيه قادرين على العيش في بلد حر ونتمكن من أن نردد نشيدنا الوطني دون خوف من أي عقاب، وعندما نتوقف عن الحزن ونصبح سعداء، حتى في وقت كهذا، سنظل نحن، أطفال فلسطين، مهما بلغ بنا العمر، ندفع ثمن نضوجنا القسري وفقداننا لبراءة الطفولة قبل الأوان، وهما جرحان لا يشفيان أبداً.

زينة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تعيش في كفر عقب قرب رام الله في الضفة الغربية. وهي إحدى الصحافيات اليافعات في الجريدة الشهرية "يوث تايمز" التي تصدرها الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب (بيالارا).